المقياس: فلسفة العلوم

المحاضرة الثانية عشرة: بول فيرابند والفوضوية المنهجية

مدخل: الإبستيمولوجيا الكشف الفلسفي العلمي المفتوح الذي بدد أصنام العقل والاغترابية البحثية المضللة، كانت لها مسارات وطرائق خلاف ما استتب في أزمنة البحث الكلاسيكية، منطوقها فلسفة اللا، والدحض، والانكار، والمراجعات والتحقيقات، وفوق كل ذلك تسمو جراءة النقد على انطباعية الاعتقاد ووهم التحقق. أقطابها كثيرون، كل ونهجه، وكل ورافده التخصصي، إذ ينزع إلى توطين معالم كشفية ثورية مجددة في العلم وتاريخه. 'بول فيرابند' أحد أبرز الإبستيمولوجيين المعاصرين ممن أبانوا على ضرورة إحداث وثبات إصلاحية مجددة في المناهج. وكان دعوته لتجسيد فكرة منهج الفوضوية المنهجية. وقد أثار تساؤلات إبستيمية نستبطنها من أشهر أعماله التي وضع فيه عصارة عمله الثوري المستجد، بينها: 'ضد المنهج'، العلم في مجتمع حر' وغيرهما. هل يكفي عزوف العالم عن الميثافيزيقا حتى نطمئن لما يرومه العقل العلمي من ادعاءات بشأن دقة وموضوعية ما حصلناه من معارف؟ ثم كيف نفسر تعاظم شأن الأخطاء في زمن أصبح فيه كشف الخطأ أجل من تكشّف الحقيقة؟ هل التاريخ الذي نعتد بمرجعيته محل تأييد أم اعتراض وتفنيد؟ ما مصير المنهجيات القائمة في خضم هذه الارتدادات العلمية العصيبة؟. أي منطق ثوري يسعه خلخلة هذه الارتدادات بإزاء هذه المشكلات؟ .

01/ فيرابند من وضعانية المنهج إلى ضد المنهج: لا شك أن ثورات العلم تقدمية على الدّوام، تضيف تراكمات على أخرى، لتحقق حاجيات المجتمعات البشرية تنظيرا ونفعا عمليا، وتاريخ العلم ينبئنا عن الطاقات الخلاقة للعلماء والفلاسفة إذ حققوا انتصارات بيّنة على معظم مشكلات الإنسان والكون، لكن العقلانيات الثورية ـ على قدر تكثرها واختلافها ـ قدر ما تسهم في بلورة مرام العقلانية المعاصرة إذ ستجمع التراكمات والتكثرات المنهجية والنظرية لأجل تحقيق وحدة المعرفة، ومن خلالها إلى توحيد النظرة بإزاء المناهج الأكثر معقولية وتأثيرا على مسارات العلم الثورية. يقول لاكاتوش: " إذا نظرنا إلى تاريخ العلم... إذا كنا نحاول رؤية كيف حققت بعض من أكثر العبارات شهرة، يجب أن نصل إلى استنتاج أنها ببساطة غير عقلانية، أو أنها تقوم على مبادئ العقلانية أو أنها تقوم على مبادئ عقلانية مختلفة عن تلك التي نحن بصدد مناقشتها... ومبادئ العقلانية التي ناقشناها لتونا هي مبادئ العقلانية النقدية... تكون قادرة على توسيع مجال ملاحظاتها على منهجيات أخرى، وكذا أحداث أخرى أكثر من مجرد تخمين"[1]. وإذ يعبر فيرابند عن مستقبل ثورات الإنسان في عالمه، خاصتها وعمومها، فإنه يتنبأ بعصر حافل بالانقلابات المعرفية الثورية، التي شأنها أن

([1]) - *Paul Feyerabend : Contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la Connaissance, Traduit de l'anglais par Baudouin jurdant, édition du seuil, 1996,. P 199.*

تعيد العالم إلى لا اغترابيته. إنها فلسفة المأمول والمتحول في منظومة الأفكار والنظريات التي عرض لها في كتابه: "*Contre la méthode*" إذ يقول: "فمن الأفضل أن نتوقع حدوث تغيرات كارثية في البيئة الحياتية: الحروب وانهيار القيم المستبدة، والثورات السياسية، وتحويل انماط ردود الأفعال لدى الكبار بما في ذلك أساليب التفكير المهمة"[1]. ويذكر فيرابند كذلك صراع العلم بالعقل بلغة الضد دوما، وبمحاكمة اعتراضية فريدة من نوعها، إذ يبين أن العلم إذ ينمو يستعبد العقل أحيانا فلا يتحرر، إذ يقول: " أن أبيّن أن العقل، على الأقل بالصورة المدافع عنها من قبل المناطقة وفلاسفة العلم وبعض العلماء، لا يناسب العلم وأنه لم يكن في مقدوره أن يساهم في نموه، وتلك حجة قوية ضد أولئك الذين يعجبون بالعلم وعبادة العقل أيضا، وهم في مقدورهم أن يختاروا الآن، إما أن يحتفظوا بالعلم أو يحتفظوا بالعقل، ولكن لا يمكنهم أن يحتفظوا بهما معا"[2].إنا بحاجة إلى عقل يجاري العلم في انسياب ثوراته، في حياة أفكاره، عقل يثور على العقل، عقل ضد العقل *mind Against mind*." بيد أن العلم ليس مقدسا إلى أبعد حد، فمجرد حقيقة أنه موجود، وأنه يصادف من يعجب به، تكون له نتائج غير كافية لجعله مقياسا للامتياز، إذ ينشأ العلم الحديث من اعتراضات شاملة ضد ما كان عليه الحال من قبل بل وضد العقلانية ذاتها، نشأ من الفكرة التي تذهب إلى أن ثمة قواعد ومعايير عامة لإدارة شؤوننا، بما في ذلك شؤون المعرفة، نشأ من اعتراضات شاملة ضد الحس أو الإدراك الشائع"[3].إذ التاريخ محكوم بمنظومة أفكار لا تنفك تؤسس فيما بينها روابط ديناميكية تطورية على الدوام، وحتى إن اقتضت الضرورة تسليب بعض منها لقصور قدرتها على مجاراة الثورات الحاسمة فهي ضرورية لحياة فكر ينزع إلى الإيجاب باستمرار، وكم من عقبة أوحت بوثبة، بثورة أو بتصحيحات استوثقها التاريخ. " وحسبنا أن نقول بأن التاريخ وبخاصة تاريخ الأفكار يعلمنا أنه إذا أردنا تحقيق الفهم إزاء التاريخ، وجب علينا فهم الأفكار، وكذا فهم العلاقات المنطقية الموضوعية فيما بينها (أو ما يسمى بالعلاقات الجدلية). لا أعتقد أن أية محاولة من أية جهة كانت بإمكانها تحقيق النجاح من خلال أي مسعى لفصل تاريخ الأفكار، ولكني أعتبر أن المهمة هنا بمنآى عن كل صلة بتخفيض هذه الأفكار والتقليل من فاعليتها. إنا بحاجة إلى مجادلة حقيقية لتبرير الاعتراف بالكيانات الناشئة، قبل أن ينشغل المرء بمحاولة القضاء عليها"[4].على هذا النحو يمكن أن نتبيّن درجة البون الواضحة بين تفكير المفكرين في نسبهم لثقافتهم لفترة من الزمن، لقد أغفل التاريخ أفكارا وحقائق آن لها أن تجد لها حياة في خضم معترك الحياة في صراعها وتحديلات مشكلاتها، وآفاقها القريبة والبعيدة بتأثير من سلطة العادات والمعتقدات الراسخة. " من المرجح أن تتطور المعتقدات والأهداف التي يعينها الإنسان، وكذا الحقائق ذات الصلة بهذا التطور. إن تاريخ العلم مليء بأمثلة على الحالات التي

([2]) - *Ibid. P22.*

([3]) - باول فيرابند: العلم في مجتمع حر، تر، السيد نفادي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص 25.

([4]) - المرجع نفسه، ص 25..

([5]) - *Paul Feyerabend : Contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la Connaissance, P 13.*

غفل عنها التاريخ وطوتها أحداث لأنها غير ذات صلة (أو أنها لم تلاحظ على الإطلاق) لتصبح في وقت لاحق عناصر مركزية قابلة للاختبار"[1]. وللأفكار شأن إذا تشكلت في نسق نظرية أو قانون، ولكن النظريات تعرض لمشكلات، والمشكلات تسبقها ملاحظات، ولكن الثابت" في اعتقاد بوبر أن النظريات الابتدائية (التوقعات على سبيل المثال) تأتي دائما في المقام الأول، وبالتالي تسبق الملاحظة، ولكن المشكلات وحدها كفيلة بتطوير النظريات العلمية التي واجهت صعوبات وليس للملاحظة تأثير يذكر"[2]. وبعد ذلك فليس للمناهج اللاثورية (نواتج النسق الاستقرائي) من فضل على تغيير منطق البنيات والأنساق العلمية، طالما أن المنهج الاستقرائي أضحى عقبة إبستيمولوجية وجب تجاوزها. " أي منهج من هذا النوع هو في نهاية المطاف ليس سوى خداع. إنه يفرض التزاما غامضا، وهو يتحدث عن الحقيقة إنه يؤدي إلى تدهور القدرات الفكرية وإضعاف قوة الخيال، ونحن نتحدث عن البصيرة العميقة... لكن حقيقة الآراء لا غنى عنها للمعرفة الموضوعية كما أن المنهج الذي يشجع على الحقيقة هو المنهج الوحيد المتوافق مع الأفكار الانسانية*، إلى الحد الذي يجيز فرض قيود على هذا التطابق"[3].

02/ العلم بين النسبية والتعددية الميثودولوجية: " يقترن المنهج بمجموع القواعد التي يعتمدها المرء، وبجملة الطرائق التي ينتهجها عقله، من أجل بلوغ الحقيقة، أو اكتشافها. يقول ديكارت في تعريفه للمنهج: ' أقصد بالمنهج القواعد اليقينية والبسيطة التي لا يستطيع بفضلها أولئك الذين يتوسلون بها بدقة أن يفترضوا البتة أن الحق يستوي على الخطأ، وأن يدركوا المعرفة الحقة، بكل ما يتأتى لعقولهم إدراكه، من غير أن ينهكوا أنفسهم أو ينفقوا جهودا ضائعة"([4]).لا ريب أن دراسات أعلنت ونتائج عنها تمخضت إيذانا بإدراك ميثودولوجي حقيقي لفكرة، ثم فلسفة المنهج في منطق النظريات العلمية السابقة نشوء عن ظهور منطق الخطاب المستنبط من النظريات العلمية في العلوم الإنسانية، فقد تمثلنا عمليا القيم الإبستيمية لميثودولوجيا العلوم الرياضية والعلوم الفيزيائية، وتسعى العلوم الإنسانية لتفعيل مثيلاتها أو ما يغايرها في حقول البحث الإنسانية. ولما كانت موضوعات الإنسان أكثر شيوعا وألفة بين موضوعات المعرفة فقد اعتقد لفيف من الباحثين بأن قدر التفكير والتحليل في مسائلها رهن الإحاطة التفسيرية عن ضرورة كثرة المناهج، لتعقل قوانينها والعلاقات القائمة بين موضوعاتها. ومن المدهش حقا أن نجد من بين العلوم الانسانية من يتخذ لنفسه أكثر من منهج يتعارض الواحد مع الآخر تعارضا جذريا، كاتخاذ منهج التحليل النفسي والمنهج التجريبي والقياس في علم النفس، وكاتخاذ المنهج التاريخي والمنهج التجريبي الإحصائي في علم الاجتماع. وما يستجدي فينا التساؤل والنظر هل قدر العلوم الإنسانية أن تجاري شتات المنهج من دون ردّها إلى وحدة المنهج؟ أو من دون مماثلة ميثودولوجية بين مناهج البحث في العلوم الطبيعية

([6]) - *Léna Soler : Introduction a L'épistémologie, Ellipses Marketing, S .A, Paris, 2000, P 79.*

([7]) - *Fabien blanchot : La connaissance objective de Karl Popper: Principales thèses et apports pour les recherches en gestion, P 27.*

*

([8]) - *Paul Feyerabend : Contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la Connaissance P47.*

([9]) ـ موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، المركز العلمي للأبحاث والدراسات الإنسانية، الرباط، المغرب، ط1، 2017، ص 473.

والعلوم الإنسانية؟. ومعلوم لدينا ولدى مجامع البحث العلمية أن الإنسان في نوعه وحسب عالم قائم بذاته، اجتمعت في مسائله ومشكلاته مطارحات العقل القولية والفعلية أبان العقل خلالها عن مركزية البحث النظمية الناظرة في سلوكيات وأحوال، وظواهر ، وأحداث الإنسان المتنوعة، وهي تستقري تعقيدات وغوامض الحياة. وأيا كانت مقولات وأسس المنهج المنتهج في متن العلوم الانسانية، فإن ضرورة تشييد صروح المناهج الفاعلة في مجالاتها مطلب جد مهم. إن الجدلية الميثودولوجية هاهنا ثورية، إذ تفسر سجال المشكلة الحقيقية بخصوص موضوعات الإنسان والمجتمع والتاريخ.

و يشير فيرابند إلى تنوع مسارات العلم، ونسبية الكشف الانساني الدال على الحقيقة إذ يقول: " ربما تتعرض الاعتبارات التي قدمناها حتى الآن إلى الانتقاد، إذا ما سلمنا بأن العلم، لكونه نتاج مجهود إنساني، فهو عرضة للأخطاء، فضلا عن أنه لا يزال أفضل من وسائل بديلة لاكتساب المعرفة فالعلم أرفع منزلة لسببين: إنه يستعين بالمنهج الصحيح للتوصل إلى النتائج، وأن ثمة نتائج عديدة تبرهن على امتياز المنهج... إذ أن فكرة منهج كلي راسخ والتي تعد مقياسا ثابتا للوفاء بالمراد، بل وحتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة إنما هي فكرة غير واقعية"[1]. وعلى هذا القدر تنعقد قواعد البرامج البحثية لمقررات الفلسفة العقلانية. لكن ثمة فوضوية تنعش الحياة في العقل، تجيز تشتيت النسقية، لتعلن عن مقاربة بينها وبين العقلانية، على نحو ما أقره بول فيرابند *Paul Feyerabend* : " بقدر ما تكون منهجية برامج البحث عقلانية، فإنها لا تختلف عن الفوضوية، وبقدر ما تختلف عنها فإنها ليست عقلانية. وحتى إذا قبلنا هذه المنهجية كلية من دون تحفظ، فإنها لا تخلق أي مشكلة لدى الفوضوي"[2]. عندئذ وجب الحرص على استعمال لغة التأكيد والإقرار العقلانية، لتشييد نظرية للحقيقة. ويقترب الطرح البوبري بخصوص مقولات النظر والتحقيق (الصدق، الموضوعية، قيمة العلم) مع ما تعرض له بول فيرابند في كتابه "العلم في مجتمع حر" إذ يقول: " لا شك أن ذلك الالتجاء إلى الصدق والعقلانية يعد بلاغة، لكنها تضحي بلاغة بلا مضمون موضوعي، وعاجزة كل العجز عن الإفصاح عما تروم الدفاع عنه... إن السؤال ما هو الشيء العظيم في العلم؟ لا نكاد نسأله، ولا نكاد نحصل عنه على إجابة شافية والشيء نفسه صحيح فيما يتعلق بالمفاهيم الأساسية الأخرى، إذ يبحث الفلاسفة في طبيعة الصدق، أو طبيعة المعرفة، بيد أنهم لا يكادون يسألون لماذا يتعين علينا أن نتعقب الصدق"[3]. هكذا يتحول الصدق إلى مشكلة قيمة وليس إلى قيمة ختامية للعلم بل من الحري بنا أن نستخلص فهما بوبريا جديدا مضمونه: أن العلم أضحى بحاجة إلى بنية نسقية لمشكلات تفهمنا كيف نتعامل مع مشكلات العلم الآنية والمستقبلية.

([10]) - بول فيرابند: العلم في مجتمع حر، ص ص 112. 113.

([11]) - *Paul Feyerabend : Contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la Connaissance, P 219.*

([12]) - بول فيرابند: العلم في مجتمع حر، ص 95.

03/ فوضوية فيرابند ومقاربات العقلانية الجديدة: ثمة فوضوية تنعش الحياة في العقل، تقوم على فكرة التعددية المنهجية(*) تجيز تشتيت النسقية، لتعلن عن مقاربة بينها وبين العقلانية، على نحو ما أقره بول فيرابند *Paul Feyerabend* : " بقدر ما تكون منهجية برامج البحث عقلانية، فإنها لا تختلف عن الفوضوية، وبقدر ما تختلف عنها فإنها ليست عقلانية.،وحتى إذا قبلنا هذه المنهجية كلية من دون تحفظ، فإنها لا تخلق أي مشكلة لدى الفوضوي" [(1)]. عندئذ وجب الحرص على استعمال لغة التأكيد والإقرار العقلانية، لتشييد نظرية للحقيقة. ويقترب الطرح البوبري بخصوص مقولات النظر والتحقيق (الصدق، الموضوعية، قيمة العلم) مع ما تعرض له بول فيرابند في كتابه "العلم في مجتمع حر" إذ يقول: " لا شك أن ذلك الالتجاء إلى الصدق والعقلانية يعد بلاغة، لكنها تضحي بلاغة بلا مضمون موضوعي، وعاجزة كل العجز عن الإفصاح عما تروم الدفاع عنه... إن السؤال ما هو الشيء العظيم في العلم؟ لا نكاد نسأله، ولا نكاد نحصل عنه على إجابة شافية والشيء نفسه صحيح فيما يتعلق بالمفاهيم الأساسية الأخرى، إذ يبحث الفلاسفة في طبيعة الصدق، أو طبيعة المعرفة، بيد أنهم لا يكادون يسألون لماذا يتعين علينا أن نتعقب الصدق" [(2)]هكذا يتحول الصدق إلى مشكلة قيمة وليس إلى قيمة ختامية للعلم بل من الحري بنا أن نستخلص فهما بوبريا جديدا مضمونه: أن العلم أضحى بحاجة إلى بنية نسقية لمشكلات تفهمنا كيف نتعامل مع مشكلات العلم الآنية والمستقبلية. "على المستوى العلمي نجد ان اتخاذ حدس افتراضي أو نظرية جديدة، قد يحل مشكلة أو مشكلتين، لكن دائما يفسح المجال للعديد من المشكلات الجديدة، ولنظرية ثورية جديدة، تمارس فعلها تماما كما لو كانت عضوا جديدا فعالا من أعضاء الإحساس وإذا كان التقدم لافتا فسوف تختلف المشكلات الجديدة عن المشكلات القديمة، سوف تكون المشكلات الجديدة على درجة من العمق مختلفة اختلافا جذريا"[(3)]. وبديهي تماما أن تحظى المناهج الكشفية المستحدثة على تأييد إبستيمي خالص، طالما أنها اخترقت عقبات وتعقيدات العلم وتاريخه، ضدا عن ما كانت تحضى به المناهج

(*) - " مال علماء الاجتماع في السبعينيات إلى القول بأن هيمنة الوضعية، التي طال أمدها على علم الاجتماع . قد انهارت، وان الفكرة القائلة بأن ثمة أسلوب واحد للبحث الاجتماعي (تدعمه فلسفة واحدة للعلوم الاجتماعية ومناهج البحث) قد أفسحت الطريق للوعي بأن هناك العديد من هذه الأساليب البحثية... وقد كانت نزعة التعددية المنهجية الجديدة نتاجا لظهور الاتجاهات الفينومينولوجية والبنائية في علم الاجتماع، وانقسام الماركسية إلى مذاهب ماركسية جديدة، فضلا عن بزوغ نجم النسبية الفلسفية. وقد استخدم بعض الباحثين تعبير التعددية المعرفية (الإبستيمولوجية) أو اللامعيارية المعرفية ليصفوا الموضوع الراهن، الذي بدا وكأنه يفتقر إلى المعيارية، والذي تنافست فيه العديد من النظريات والنماذج الإرشادية المعرفية من أجل الهيمنة على علم الاجتماع. وقد ذهب أحد النقاد: بول فيرابند في كتابه المعنون: ضد المنهج (الصادر عام 1975) ذهب إلى القول بأنه حتى في مجال العلوم الطبيعية فإن الباحثين غالبا ما يغيّرون ما يفعلونه والأساليب التي يفعلون بها ذلك. وهم لا يمتلكون منهجا واحدا بعينه، وأن النجاح العلمي الحق يتطلب عدم الخضوع... لمنهج بح ثي واحد، بل إنه يتطلب عوضا عن ذلك نوعا من الفوضى المعرفية، ولذلك فقد نصّب فيرابند نفسه ضد المنهج مفضلا مثل هذه الفوضى".(جوردن مارشال: موسوعة علم الاجتماع، المجلد الأول، تر محمد الجوهري وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2000، ص 425).

([13]) - *Paul Feyerabend : Contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la Connaissance, P 219.*

([14]) - بول فيرابند: العلم في مجتمع حر، ص 95.

([15]) - *Karl popper :The myth of the framework 'in defense of science and rationality, Edited by M. A. Notturno, Rout ledge, London and new york, 1994, P 04.*

العلمية في عصر الإيمان على ثقة وإجماع العلماء على كفايتها وكفاءتها، لإيجاد مخرج آمن لمشكلات العلم (بمنآى عن كل نقد أو مراجعة أو تشكيك أو احتمال غير مرجح للتحقق) وخاصة في أولى مراحل نموه. يقول ريشنباخ: " ليس لأحد أن يتوقع نقدا للمنهج العلمي في وقت كان فيه ذلك المنهج لا يزال في مهده، وكان يغمره التفاؤل بما أحرزه في أول عهده من نجاح "[1].إذ التاريخ محكوم بمنظومة أفكار لا تنفك تؤسس فيما بينها روابط ديناميكية تطورية على الدوام، وحتى إن اقتضت الضرورة تسليب بعض منها لقصور قدرتها على مجاراة الثورات الحاسمة، إنها ضرورية لحياة فكر ينزع إلى الإيجاب باستمرار، وكم من عقبة أوحت بوثبة، بثورة، أو غيرها من التصحيحات التي أرّخها المؤرخون في التاريخ. " وحسبنا أن نقول بأن التاريخ وبخاصة تاريخ الأفكار يعلمنا أنه إذا أردنا تحقيق الفهم إزاء التاريخ، وجب علينا فهم الأفكار، وكذا فهم العلاقات المنطقية الموضوعية فيما بينها (أو ما يسمى بالعلاقات الجدلية). لا أعتقد أن أية محاولة من أية جهة كانت بإمكانها تحقيق النجاح من خلال أي مسعى لفصل تاريخ الأفكار، ولكني أعتبر أن المهمة هنا بمنآى عن كل صلة بتخفيض هذه الأفكار والتقليل من فاعليتها. إنا بحاجة إلى مجادلة حقيقية لتبرير الاعتراف بالكيانات الناشئة، قبل أن ينشغل المرء بمحاولة القضاء عليها"[2].على هذا النحو يمكن أن نتبيّن درجة البون الواضحة بين تفكير المفكرين في نسبهم لثقافتهم لفترة من الزمن، لقد أغفل التاريخ أفكارا وحقائق آن لها أن تجد لها حياة في خضم معترك الحياة في صراعها وتحديلات مشكلاتها، وآفاقها القريبة والبعيدة بتأثير من سلطة العادات والمعتقدات الراسخة. ويقيم شالمرز البرهنة على قدرة المناهج المعاصرة على إحداث التطورات الحاسمة في تاريخ العلوم، إذ يقول: "وهناك حجج أخرى مبنية على تحليل مفصل للعلم السابق وللنظريات العلمية الحديثة. والتطورات الحديثة حول نظريات المنهج العلمي تتسم باهتمام متزايد يتناول تاريخ العلوم. ولهذا التطور نتيجة أربكت العديد من فلاسفة العلوم: فما اعتبر عادة بمثابة مقدمات عظمى في تاريخ العلوم، مثل اكتشافات غاليلهGalilée ونيوتن Newton وداروين Darwin وإنشتاين Einstein . لم تتم بالفعل وفقا للمخططات التي يرسمها الفلاسفة عادة"[3].إن مثل هذه الإرباكات النظرية في عصر العلم الكلاسيكي لا شك أنها ستلقي بثقلها على فلاسفة العلم معاصرا بغرض إعادة البحث في تأصيل صحيح لمرجعية النظريات والقوانين العلمية، فيتعرض خبراء العلم إلى مشكلة: من أين يبتدئ التأصيل المرجعي لأبحاث العلم؟. وقد أشار فيرابند لأمثال هذه التساؤلات وأخرى حين عرض لقضية تمفصل الثقافات واختلال معايير الحكم على نتائج العلم، إذ يقول: " إن ما يمكن استخدامه لتأييد العلم أيضا يمكن استخدامه لتقويضه، فآليات القياس الثقافية التي يسعها فصل الحقيقة عن المظهر آيلة للاختلاف ووجب أن تكون كذلك، حينما ننتقل من ثقافة إلى أخرى، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى تالية"[4].وتاريخ

([16]) - هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية ، ص ص 83. 84.

([17]) - *Paul Feyerabend : Contre la méthode, Esquisse d'une théorie anarchiste de la Connaissance,. P 13.*

([18])- Ibid. P 05.

([19]) - *Paul Feyerabend :AgainstMethod, P 225.*

العلم حين ينظر إليه كخطاب تاريخي ثقافي مخبر عن تكشف مشكلات وضعية، ينبئنا بأحوالها المؤرخون، حين يبينون للتاريخ مواضع التقدم الباهر لصنائع الإنسان وقدرته على مجاراة التطابق الضمني بين خصوصية الحقبة التاريخية وبين خصوبة الأفكار التي عرض لها لتفسير وفهم مسائل العلم لبلوغ مراتب التطور والنمو المعرفي. ولا شك أن مهمة العقل غير قاصرة على ضم الأفكار إلى أفكار سابقة، أو مناقضة نظرية لنظرية، ولكن من الضروري أن يتبنى العقل المستنير منطق خطاب بنيوي يعيد للعلم تراتبية البناء، حتى وإن كانت بنياته أكثر تعقيدا.

خاتمة: العلم في مطلع الأزمنة المعاصرة، وبالأخص في القرن العشرين وما تلاه من أبحاث في مطلع الألفية الثالثة، وضع آخر بأنساق وأفكار ثورية تحررية، تتجاوز استكانية العلوم واغترابية العقل الباحث عن ذاته وعن هويته المتحررة من أشكال وعلائق البحث المنغلقة. وقد كانت تلك دعوة فيرابند من خلال مطارحاته الفكرية في مؤلف 'ضد المنهج' ولا شك أن منطق الخصوص يلقي بتأثيراته وتداعياته الإبستيمية على فلسفة الشمول، إذ يستبطن من نظريته دعوى 'ضد العلم'.